المشرق

المدرسة المستنصريَّة

من كتاب مساجد بغداد ومدارسها وهو تحت الطبع لحضرة الامام النقيه
الشيخ محمود شكري افندي الآلوسي
وقد استلّها من الكتاب المذكور الاب انستاس ماري الكرمليّ

مرَّ في المشرق (٥ : ١٦٤) شيء من وصف هذه المدرسة اثبتهُ القانوني البارع جرجس افندي صفا في أثناء مقالة كتبها لتعريف كتبه الخطيَّة. غير ان هذا الوصف مع ما يحتويه من الفوائد لم يكن مستوفيًا فاحببنا تتمَّةً للفائدة ان نسطّر هنا هذه النبذة المستحسنة شاكرين لناسج بُردتها المتقنة (المشرق)

١ صاحب المدرسة المستنصريَّة

قد احكمتْها يد الاتقان رافعةً بنيانها للعالي فوق كيوانِ
شمس المعارف دارت فوق قُبَّتها ومن ذراها بدت انوار عرفانِ
منها تسيل ينابيع الكمال كما قد يُشدَ للعلم فيها خير أركانِ
والطالبون فنون العلم قد عكفوا فيها يجيدونَ دومًا صرف اذهانِ
فكم الى الدين بالتحصيل قد غرسوا اشجار علم جناها فوق أغصانِ
فيها المعارف جاءت وهي مُعْرِبةٌ عن حكمة ما حواها صدر لقمانِ
بين المدارس قد اضحت مشاهدها كروضةٍ أينعت في روض بُستانِ

هذه المدرسة رصينة البناء محكمة القواعد والارجاء. واسعة الساحة لم يُبنَ في أيامها احسن منها ولا اكثر وقوفًا. وهي على دجلة من الجانب الشرقي من بغداد عند الجسر الموجود اليوم ولم تزل الى عصرنا هذا قائمة الاركان مشيَّدة البنيان. بناها المستنصر بالله ابو جعفر المنصور بن الظاهر الخليفة العبَّاسيّ طيَّب الله ثراهُ وجعل الجنَّة

مستقرّهُ ومثواهُ. ورتّب فيها اربعةً من المدرّسين على المذاهب الاربعة. وعمل فيها بيمارستانًا ورتّب فيها مطبخًا للفقهاء. ومُزَمّلةً للماء البارد وقد كُتب فوق بابها الكبير الواسع تاريخ انشائها منقوشًا على الآجرّ وهو باقٍ الى اليوم ونصُّهُ:

بسم الله الرحمن الرحيم. قد انشأ هذا المحل رغبةً في ان الله لا يضيع أجر من احسن عملًا وطلبًا للفوز بجنان الفردوس التي اعدّها للذين آمنوا وعملوا الصالحات تزلًا. وامر ان تُجعَل مدرسةً للفقهاء على المذاهب الاربعة سيدُنا ومولانا امام المسلمين وخليفة ربّ العالمين ابو جعفر المنصور المستنصر بالله امير المؤمنين شيّد الله تعالى معالم الدين بخلود سلطانهِ واحيا قلوب اهل العمل بتضاعف نعمهِ واحسانهِ وذلك في سنة ثلاثين وستمائة (١٢٣٣م) وصلّى الله على سيدنا محمّد وآلهِ وسلّم

ثمّ اسمُ الخليفة المشار اليهِ والثناء بما هو اهلهُ وتاريخ الانشاء.

وكان هذا الخليفة اعلى الله تعالى مقامهُ على جانب عظيم من الفضل وحسن الخلق والصفات الكاملة والمزايا الجليلة قال ابن النجّار في تاريخهِ: «لمّا ولي الخلافة نشر العدل في الرعايا وبذل الانصاف في القضايا وقرّب اهل العلم والدين وبنى المساجد والأربطة وعمّر الطرق وجمع الجيوش لنصرة الاسلام وحفظ الثغور وافتتح الحصون واجتمعت القلوب على محبتهِ والالسُن على مدحهِ. واستخدم عساكر عظيمة وكان ذا همّةٍ عالية وشجاعةٍ واقدامٍ عظيم قصد التتارُ البلادَ فلقيهم فهزم التتارَ هزيمةً عظيمة. تُوفي رحمهُ الله يوم الجمعة عاشر جمادى الآخرة سنة اربعين وستمائة (١٢٤٢م) ولهُ من العمر اثنتان وخمسون سنة فكانت خلافتهُ نحو سبع عشرة سنة» انتهى. وقد اتفق المؤرخون على الثناء عليهِ وعدّ مزاياهُ الجميلة بما لا يسع المقامَ ذكرهُ

٣ وصف هذه المدرسة ومرافقها

اذا دخلها اليوم انسان من بابها الكبير الذي في جهة الجنوب للداخل يرى فسحةً طولها نحو مائة متر وعرضها نصف ذلك وفي كل جهة منها ايوان رفيع السمك كأنهُ أُعدّ كل واحد منها لمدرّس من المذاهب الاربعة. وفي جدار كل ايوانٍ منها وهو ما يستقبلهُ الداخل سطرٌ منقوش في الحجر لم يبقَ منهُ اليوم حرف واحد. وفي طرفي الايوان رواق ممتدّ وفي منتهاهُ حُجَر أُعدّت للطلبة المقيمين في المدرسة وطبقة اعلى منهُ على هذا المنوال وفي جنبها من جهة الغرب دار للكُتُب التي لم يجتمع مثلها في غير هذا المحلّ

كثرةً ونفاسةً وقد انفرد كل فنٍّ بجعلٍ منها. وكانت فهرسةُ الكُتُب عدَّةَ مجلَّدات ضخام وكان المحافظون عليها عدَّة اشخاص من المحدّثين يذاكرون المشتغلين بعلم الحديث باوقاتٍ مخصوصة علاوة على وظائفهم. والى جانب المدرسة دار يُلقَّن فيها الكتاب الكريم لعدد مخصوص من الايتام الفقراء. وفي شرقيّ هذه المدرسة دار للطبخ ومحلّ للذخائر وغير ذلك من ضروريّات الطلبة وفي جنب هذه الدار حمّام مختصّ بالمدرسة. وكل هذه المباني مبنيّة باتقان واحكام وقد مضى عليها الى يومنا هذا ستّمائة وتسعون سنة ولم يضعضعها تقادم الزمان وتعاقب الدهور. وقد زارها ابن بطوطة عند مروره على بغداد ووصفها بأبدع وصفٍ وارجزه وذكر المدرّسين وكيفيّة جلوس الاستاذ عند التدريس وقال انّها في منتهى سوق الثلاثاء على دجلة وفي وسط السوق المدرسة النظاميّة وذكر ان هذا السوق فيه كثير من الصنائع . . . .

٣ الفنون التي كانت تدرّس في هذه المدرسة

قد سبق ان مؤسّس هذه المدرسة طيّب الله ثراهُ أنشأها للفقهاء على المذاهب الاربعة فيُشتَغل فيها بعارم الدين ولا شكّ ان علم الفقه اصولهُ وفروعهُ موقوف على فنون كثيرة واتقانهُ منوط بضبط عارم تفوت الحصر. وقد وقفتُ على بيان ما كان يُقرأ في هذه المدوسة على سبيل الاجمال وانّ المشتغلين فيها على اقسام واصناف فربّما كان منهم من يشتغل في اليوم باربعة فنون او اكثر او اقلّ. فالعلوم التي كانت تُقرأ على سبيل الاجمال: علم الفقه. علم اصول الفقه. علم الحديث. علم اصول الحديث. علم اسماء الرجال وتراجمهم. علم التاريخ. علم الادب. علم متن اللغة. علم اصول اللغة. علم النحو. علم اصول النحو. علم المعاني والبيان والبديع. علم الانشاء والترسّل. علم قرض الشعر. علم نقد الشعر. علم الطبّ ولواحقه. علم الحيوان. علم النبات. علم الهندسة. علم تهذيب الاخلاق ورياضة النفس. علم الحساب. علم المساحة. علم الفرائض. علم معرفة البلاد وتقويمها. علم الزيج والفلك. علم الهيئة. علم الكلام والعقائد. علم المنطق. علم التفسير. علم القراءات

وكان الموظّفون في المدرسة اقلّ من المشتغلين فيها فانّهم في كل وقت دون ألفَي طالب على اختلاف طبقاتهم واستعدادهم. واما الموظفون فهم دون الالف وكانت

التفرقة بين الاصناف والطبقات بألوان الطيالس فذور الطيالسة الصفر صنف. والبيض صنف. والحُمر صنف. وهكذا الخ

وكانت هذه المدرسة مجمع افاضل العصر وائمته. واعلام الزمان واساتذته. كم نشأ منها إمام. ومجتهد همام. بزغت منهم شموس المعارف والكمالات. واشرقت من افقهم بدور الفضل اللامعات. وكان المدرّسون في هذه المدرسة ممّن اشتهر في عصره بالتفرّد والتفوّق على من سواه. ومن مشاهيرهم: الشيخ الامام جمال الدين عبد الله بن محمّد بن عليّ العاقولي. درّس فيها نحو اربعين سنة وكان شيخ الاسلام في عصره متضلّعاً من سائر العلوم العقليّة والنقليّة وكان قويّ النفس له وجاهة في الدولة كم كُشفت به كربة عن الناس بسعيه وقصده. انتهت اليه رئاسة الشافعيّة ببغداد. مولدهُ على ما في تاريخ شذرات الذهب في رجب سنة ثمان وثلاثين وستمائة (١٢٤٢ م) ووفاتهُ في شوال ببغداد ولهُ تسعون سنة وثلاثة اشهر

وتفصيل تراجم مدرّسي المستنصريّة في تاريخ ابن النجّار وغيره. وكذلك بيان من تخرّج فيها من الاساتذة وائمة الأعلام

وبعد كتابة هذه الاسطر وقفتُ على ما كتبهُ في وصف هذه المدرسة العلّامة الشيخ عبد الرحمن الإربليّ في كتابه « سِيَر الملوك » قال عند الكلام على ترجمة المستنصر بالله ما نصهُ:

« ومن محبته للعلوم انشأ خزانةً للكتب بشريف حضرته. ومقدس سيرته. جمع فيها من انواع العلوم على اختلافها. وتباينها وائتلافها. بالاصول المضبوطة. والخطوط المنسوبة. ما جاوز حدّ الكثرة. ثم انشأ مدرسةً على شاطئ دجلة رجمايها وقفاً على المذاهب الاربعة ليُحصل بها كمال المنفعة. فجاءت محكمة البناء راسخة في الماء. فسيحة الفناء. وضعُها غريب. وحسن ترتيبها عجيب. شامخة الى عنان السماء. تضحك شرافاتها بالسرور. ويظهر في ابنيتها الفرح والحبور. ويلمع العزّ في نواحيها ويطلع السعد من اساسها واعاليها. فهي كعبة الانام. وقبّة الاسلام. مجمع سائر الدين. ومذاهب المسلمين. وعلم الاصول والفروع. المتفرق فيها والمجموع. وعلم القوافي وعلم الحديث ومعرفة الحلال والحرام وقسمة الفرائض والتركات وعلم الحساب والمساحات وعلم الطبّ ومنافع

الحيوان وحفظ قوام الصحة وتقويم البلدان. ولما تكملت ابنيتها كُسيت بالفخر الملابس وتجلت كاحسن العرائس ورتب لها البوابين والفراشين والخدم والطباخين واسكن لكل مذهب اثنين وستين من الفقهاء. وجعل لهم مدارس واربعة مُيدين وأجريت لهم بها المشاهرات الوافرة وما يحتاجون اليه من الخبز واللحم والحلوى والفواكه والابازير والصابون. وجعل فيها طبيباً حاذقاً ماهراً واثبت عندهُ عشرة من الطلبة يشتغلون عليه في علم الطبّ وجعل لهم الاكحال السائلة وبُنيت لهم صُفَّة فاخرة مقابلة للمدرسة يجلس فيها فيقصدهُ المرضى فيداويهم. وبنى في حائط هذه الصفَّة دائرة عجيبة وصورتها صورة الفلكِ وجعل فيها طاقات صغاراً لها ابواب كلّما سقطت بندقة انفتح باب من ابواب الطاقات وهو مذهّب فصار مفضضاً ومضت ساعة من الزمان. والبندقتان من شبَهٍ يقعان من فم بازَيْن من ذهب في طاستَيْن من ذهب ويذهبان الى مواضعهما وتطلع شموس من ذهب في سماء زرقاء في ذلك الفلك ومع طلوع الشمس تدور مع دورانها وتغيب مع غيوبتها. فاذا غابت الشمس وجاء الليل فهناك اقمار طالعة من ضوء خلفها كلما مضت ساعة تكامل الضوء في دائرة القمر ثم تبدو بالدائرة الاخرى الى انقضاء الليل وطلوع الشمس

« يقول مؤلف تاريخ بني العباس الامام العالم تاج الدين عليّ بن الحسن المعروف بابن الساعي ان هذه منقبة لم يسمُ اليها الاولون. ثم جعل فيها خزانة الكتب ونقل اليها من الرَبعات الشريفة والكتب النفيسة والاصول المضبوطة المحتوية على جميع العلوم مائتين وتسعين حملاً سوى ما نُقل اليها بعد ذلك وشرط ان يكون في دار الكُتب التي هي الخزانة فيها عشرة يشتغلون بعلم الحديث النبوي ورتّب عندهم شيخاً على الاستاذ يُقرأ عليه الحديث. ثم الى جانب هذه المدرسة دار برسم تلقين القرآن المجيد يُتبنّى بها ثلثون صبياً ايتاماً يتلقّنون القرآن من شيخ ملقّنٍ ويكون لهم مُيدًا يحفظهم التلاقين. وشرط للجميع من الخبز والمشاهرة والوظائف ما تضمّنهُ شرط الواقف رحمهُ الله. ثم شرط ايضاً ان يكون فيها من يشتغل بعلم العربية وكذا من يشتغل بعلم الحساب والفرائض. ثم أنشأ قدّس الله روحهُ من المشاهد والمساجد والرُبط والمناور والقناطر ووسع الطرقات الى غير ذلك من الصدقات في كل الأيام واعطى الثياب والخلع والجرايات في شهر

رمضان والرواتب في سوى ذلك وعموم هذه الاسباب العلماء والعباسيين والعاويين والضعفاء والمساكين وترويح الايامى والحنو على اليتامى وذلك اكثر من ان يحصر . فنسأل الله تعالى ان يحسن اليه وان يتغمده برحمته ورضوانه ويسكنه بحبوحة جنانه بمحمد وآله » انتهى

إطلاع الحضر على أطلاع النور

لحضرة الكاتب العالم والباحث المتفنن الاب انستاس الكرملي

(تابع لما سبق)

٥ (لغة النور) قد قلنا ان الواسطة الاخرى لمعرفة اصل هؤلاء الاقوام هي البحث عن لغتهم وتحليل الفاظها والتنقيب عن اصلها . وقد سبقنا الى ذلك جماعة من علماء الافرنج وقد قرّ رأيهم في ان اغلب الفاظ لغتهم من اصل سنسكريتي (السنسكريتية لغة الهند القديمة) وهذا الراي يؤيد القول بان هؤلاء الاقوام خليط من سلالة الهنود والفرس وما جاورهم من الناس لان لغاتهم راجعة كلها الى الاصل الآري او الهنديّ الاوربيّ

واعلم ان النور قد حافظوا على لغتهم هذه في جميع الاقطار الاوربية من شمالية وجنوبية وكذا قل عن سائر البلاد الموجودين فيها كالاناضول مثلاً والروملي ومصر وسوريّة وارمينية وفارس الّا انهما لا تخلو من لغات غريبة كالانكليزيّة والفرنسيّة والايطالية ونحوها وقد دخلتها إثر مخالطاتهم لهؤلاء الناس بل وهذه الكلم تزداد او تنقص في لغتهم على نسبة تداخلهم مع من ليس من جنسهم

اما في بلادنا العراقيّة هذه فالنور على فئتين عظيمتين : فئة تتردّد بين بلاد فارس وهذه الاصقاع . وفئة تطوف البلاد العربية على طولها وعرضها ولا تخرج منها . فلغة الفئة الاولى (وتسمّى الكاولية بوجه الاطلاق) تشابه كل المشابهة اللغة الكرديّة